فَصْلٌ

في مُدَارَاةِ دَاءِ غَضَبِ المَلِكِ

يجبُ على الوزيرِ أن يكونَ من جميعِ أحوالِ الملكِ على خبرٍ، وليستكشفْ ما عندَه من خيرٍ وشرٍّ، ولا يستسلمْ لبادرته كاستسلامِ جعفرٍ بنِ يحيى لغائلة الرشيد، فإنه عَرَفَ تَغيرَه، وإزماعَه الإيقاعَ به، وأراد أن يزدادَ معرفةً له، وإيقاناً إياه فقال لإبراهيمَ بنِ المهديِّ، وكان يَوَدُّه ويخالِصُه، وكانا يجتمعان كل ليلة في مجلس الرشيد: يا حبيبي أظنُّ أنَ أميرَ المؤمنين قد تغيرَّ لي، وانطوى على غيرِ الجميلِ في أمري، فأحبُّ أن تتعرفَ صورةَ حالي لديه، من ألحاظِه، وألفاظه وتخبرني بما يصحُّ لديك منها، فقال إبراهيمُ: نعمْ وكرامة، وكان أجودَ الناسِ رأياً في أمورِ غيرِه، وأرجاهم عَوْداً في أمر نفسِه، فإذا قيل له في ذلك، قال: لأني أنظر في أمورِ الناسِ بعينِ العقلِ فأصيبُ، وأنظر في أمرِ نفسي بعينِ الهوى فأخطِئ، وشتان بينهما، ثم جعلَ إبراهيمُ في كلِّ ليلةٍ يتأملُ الرشيدَ، ويتفقد مساقطَ ألحاظِه، ومواقعَ ألفاظِه، إذا حادثَ جعفراً، فقال ذاتَ يوم لجعفرٍ: يا حبيبي قد تعرفتُ الأمرَ، فعرفتُ أنَّ الرجلَ متغيرٌ لكَ جداً ورأيتُ فيه علاماتِ الملالِ، وسوءِ الرأي، فقال جعفرٌ: قد ظهرَ لي مثلُ ما ظهرلك، فأحبَّ أن تخبرني بحقيقةِ ما شاهدتَه، لأقابلَ بها ما أشاهده، فقال إبراهيم: أراهُ يهزلُ إذا جَدَدْتَ، ويجدُّ إذا هَزَلْتَ، وهذا غايةُ التغيُّر، فقال جعفرٌ: صدقتَ يا حبيبي، فأشِرْ عليَّ برأيكِ في أمري، فقال: قد قالتِ الحكماءُ: إذا رأى الوزيرُ في الملكِ أماراتِ التغيرِ والاعتقادِ، وعلم

أنهما بلغا مبلغاً لا يقبل الإصلاحَ، فليس له إلا الفِرار، وهذا موسى كليمُ اللهِ عليه السلام يقول: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾[1] والشاعرُ يقولُ:

لا عار لا عار في الفِرار
فقد قربّني الهدي إلى الغارِ

وبعضُ السلفِ يقول: الفِرار مما لا يطاقُ من سُنن المرسلين، ولمّا جرى على جعفرٍ ما جرى، قال الرشيدُ:

لو أن جعفرَ هابَ أسبابَ الردى
لنجا بمهجته طِمِرٌّ مُلْجَمُ
ولكانَ من حَذرِ المنونِ بحيثُ لا
يرجو اللحاقَ به العُقابُ القَشْعَمُ
لكِنّه لمّا تكاملَ يومُه
لم يدفعِ الحدثانَ عنه مُنجِّمُ

(1) الشعراء: الآية (21).